جميل صدقي الزهاوي

مولده ونسبه

وُلد جميل صدقي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) ؛ هذا ما أخبرني به الزهاوي نفسه وكتبه بقلمه أكثر من مرة . وبعدُ فلا محلَّ للرجم بالغيب — كما ذهب بعض الكتاب — في تقدير عمره بأكثر مما ينطق به هذا التأريخ المضبوط بالسنة والشهر واليوم ، والذي حمل أولئك الكتاب على الخرص والتخمين ما كان يظهر على بنية الراحل من التتابع ، وعلى صحيفة وجهه من سطور الشيخوخة المتراخية ، مما يخيل للرائي أنه مشفٍ على التسعين ، ونحن نرى ان هذه ظاهرة اسأرتها فيه الأوصاب التي كانت تنتابه من داء عصبي نشب فيه إبان الشباب ورافقه حتى الموت :

والموت آخر علةٍ يعتلها البدن العليل

وجميل هو ابن العلاّمة الشهير ، الزهاوي الكبير ، محمد فيضي ، مفتي بغداد ، واحد مشايخها الأفذاذ الذي تخرّج به خلق كثير من مشايخ العراق ، وكان ينتمي الى أسرة عراقية عريقة بالمجد ترجع بنسبها الى خالد بن الوليد المخزومي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دراسته

كانت مدرسة ابيه الزهاوي (١) الكبير في بغداد منتجعاً لروّاد المعرفة ، ومَعيناً عذباً لورّاد علوم الشريعة الإسلامية ، والآداب العربية ، زاخرة بالطلاب من مختلف انحاء العراق ؛ نبت جميل في ذلك الجو العلمي ، وتلقى علوم الدين والعربية في تلك المدرسة ، مترسماً آثار النابهين من اهل العلم في ذلك العهد ، وكان ذكيّ الفؤاد ، متوقد القريحة ، جامح العزيمة ، فتوصل بالمدة القصيرة الى ما لا يصل إليه اقرانه إلا في المدة الطويلة .

وكان ذا ميل خاص الى الأدب ، والتوسع في أصوله وفروعه ، حتى أنه حاول صَوغ القريض وهو في سنّ المراهقة .

وكان قد حذق الفارسية والتركية زيادة على الكردية ، التي كانت إحدى لغتي ابويه ، ثم حبب إليه التحلي بالعلوم الكونية العصرية ، ولكنه لم يجد الطريق إليها نهجاً ، لأن هذه العلوم بطبيعة مزاجها العصري تتطلب دراسة منظمة زيادة على التضلع بلغة أوربية ، ولم تكن البيئة التي نبت فيها المترجم مساعفة للوصول الى تلك الغاية من هذه السبيل ، فما كان له بدٌّ من الرجوع الى الصحف الموقوتة والكتب العصرية التي كانت تنشر بالعربية أو التركية ، يستضيء بنورها ويلتقط شتيت شذورها ، وكان حسن التصرف بما يحذقه من تلك المباحث ، ولقوة ثقته بنفسه ، واعتداده بمواهبه ، كان يعمد الى العويص منها ويناظر أهله فيه ، ويباحثهم حتى يُكوّن له رأياً خاصاً ينافح عنه ، ويناضل دونه ، خُذ — مثلاً — رأيه في الدافعة ، فإنه مع علمه بما يرتكن اليه موضوع الجاذبية من المقدمات الرياضية والحقائق الطبيعية ذهب فيه مذهباً خالف فيه جميع علماء هذا الشأن ، فهو يرى ان المادة لا تجذب المادة بل تدفعها ، فليس في الكون جذب وإنما هو دفع . ولشدة وُثوقه بصحة رأيه هذا وضع فيه مؤلفاً خاصاً واخرجه للناس .

وله آراء كثيرة من هذا القبيل انفرد بها ، وقد اودع خلاصتها كتاباً اسماه :

(١) الزهاوي : نسبة الى (زهاو) قرية من اعمال كرمنشاه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« المجمل مما ارى » نشره قبل وفاته ببضع سنين ، وفي شعره طائفة من آرائه مبثوثة هنا وهناك ، وهي اول ما يواجه الباحث في شعره .

الزهاوي الأديب

لا مِراء في ان الزهاوي من افذاذ أدباء العصر ، في طليعة المجددين من آحاده ، والبارعين من افراده ، وقد وفرت له بيئته العلمية ومواهبه العقلية النادرة جميع عوامل التفوّق والنبوغ في هذا الشأن ، وفي الرجوع الى آثاره المنثورة ودواوين شعره المنشورة ما يغني عن الإطالة في تقريظه والإطناب في الثناء عليه .

وكان قد اطلعني على مجموع من الشعر اختاره من دواوين الشعراء وكتب الأدباء ، واسماه « عيون الشعر » فبهرني بسلامة ذوقه ونفوذ بصره في دقائق الفصاحة وأسرار البلاغة ، وقديمًا قيل في ابي تمام إنه في ديوان الحماسة اشعر منه في ديوان شعره ؛ وهذا القول يكاد ينطبق على ادبينا في مختاراته هذه اتم انطباق .

الزهاوي الشاعر

يُعدُّ الزهاوي في زمرة الطبقة الأولى من شعراء هذا العصر ، ويمتاز بوفرة الإنتاج ، فقد كان ينظم في الفترة القصيرة العدد الكثير من المقطعات والرباعيات ، بل القصائد مما يعسر على غيره — ولا سيما في مثل سنه — أن يباريه في بعضه ، وكان سريع الإنتاج فإذا بدأ بنظم قصيدة لا يكاد يقر له قرار حتى يأتي على آخرها ، كنت ربما أذاكره في موضوع وألمع انه يستحق العناية ، وعندما نجتمع في اليوم التالي او الذي يليه يخرج من جيبه قصيدة او مقطوعة تتضمن ما تذاكرنا فيه وزيادة ، وإذا شعر بقصور في بعض نواحي الموضوع يقول : هذا لا يخضع للوزن والقافية .. على انه قد يخفي ببعض القصائد ويعني بصقلها فتأتي آية في الإبداع والابتكار ، وإخال ان هذا هو السر في التفاوت البارز الذي يجده الناظر في شعره ، وهو ايضًا السبب في عدم تقيده بوحدة الموضوع في الكثير من قصائده ، ومن ثم وجدناه عندما طبع ديوانه الطبعة الأخيرة اعاد النظر في الكثير من قصائده فهذّب وشذّب ، وبدّل وحوّل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد أودع نظمه الكثير من آراء الحكماء ونظريات العلماء ، كما أودعه معظم آرائه في الشؤون الكونية ، ففيه منها ثروة طائلة تتضمن له الجدّة والخلود .

وفي شعره طائفة كبيرة أوقفها على الأحداث البارزة التي حلت ببلاد العرب خاصة ، والشرق عامة ، خلال نصف قرن على التقريب ؛ فهو من هذه الناحية تاريخ مجمل لما تتابع على هذه الأقطار من الأحداث السارّة والضارّة ، فيضحك لأفراحها ، ويبكي لأتراحها ، ففيه القصائد الباسمة اللامعة ، والحزينة الدامعة .

البارز من أخلاقه

كان رحمه الله عصبيّ المزاج ، سريع الغضب سريع الرضا ، بعيداً عن الحقد والضغينة ، ولوعًا بلفت الأنظار إليه ، راضية أكانت أو غير راضية ، كثير التطلع الى معرفة آراء الناس فيه ، يظهر ذلك لجليسه في طلائع كلامه .

يدين بالقومية ، ويناضل عن العربية ؛ سمعته يناظر أحد الأدباء في هذا الموضوع ، ويدعم آراءه بالبراهين ، وبالأخير تمثل بقول الحماسي :

وهل انا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وكان شغوفًا بالحرية الى حدّ بعيد ، ويطالب بإطلاقها الى الحد القصي : حرية التفكير ، حرية الاعتقاد ، حرية القول ، حرية النشر ... كل ذلك يريده ويطالب به ، ولا يزعجه إلا حرية واحدة وهي حرية الذين يخالفونه في بعض مايذهب اليه ، ولا سيما الذين يسميهم بالرجعيين او الجامدين ، فإنه يرغب في كبح كلمتهم وإسكات نأمتهم . اذكر انه اجتمع بي — وانا يومئذ مدير للمطبوعات — فشكا إلي ما يلاقيه من بعض أقلام رجال الدين الذين يهاجمونه وينتقدونه ، واشار الي انه ينبغي ألاّ يفسح لهم المجال الى هذا الحد . قلت له : انت تدين بالحرية في كل شيء فهل رجعت عن رأيك فيها او تريدها لفريق دون آخر . ولشدة ولوعه بالحريات ناضل كثيراً عن حرية المرأة الشرقية ، وطلب لها من الحريات اكثر بكثير مما حصلت عليه المرأة الغربية . ولكثرة ما كان يناضل عن الحرية قال له بعض الأدباء — على سبيل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التنكيت — يا أستاذ : أردت ان تملك الحرية فملكتك ، فأنت الآن عبدها ، فأين حريتك ؟.

وكان جريئاً في إبداء آرائه وإن ناقضت آراء الآخرين ، وجلبت عليه نقمة المخالفين ، وقلما انتصر لرأي ورجع عنه او اعلن فكرة وتخلى عنها .

وكان جلداً على العمل يطالع كثيراً ويكتب كثيراً ، حتى ان الإنسان ليأخذه العجب عندما يرى نشاط فكره ، ونتاج قلمه ، مع انتكاث بنيته ، واختلال صحته .

وكان يحفظ لأصحابه حقوق الصحبة حتى بعد الوفاة ، وقلما فارق الحياة حميم له إلا بكاه ورثاه ، وفي شعره الكثير من هذا القبيل .

وكان يحب النكتة ويعشق النادرة ، وله في ذلك غرائب وعجائب خليقة بأن تجمع في رسالة خاصة والكثير منها مشهور بين الخاصة ، يتناقلونها ويتفكهون بها ، ومن امثلتها : انه حضر في مجلس بعض كبراء الأتراك في بغداد ، فدار الكلام حول الخرافة المشهورة ، وهي ان بعض المبتدعة يمسخون خنازير على اثر موتهم ؛ فأجمع الحاضرون على وقوع ذلك ، وتصدى بعضهم لسرد وقائع في هذا الشأن زعم انه رآها عياناً ، فالتفت صاحب المجلس الى المترجم وقال : ما رأيك في هذا يا أستاذ ؟ فأجابه : هذا امر مفروغ منه ، انا رأيت بعيني بشراً احياءً — واشار الى الحاضرين — مسخوا حميراً ، فكيف لا يجوز مسخ الميت خنزيراً !!

سيرته الرسمية

اول منصب رسمي عهد الى المترجم العضوية في مجلس المعارف في بغداد وذلك سنة ١٣٠٣ هـ ثم عين مديراً لمطبعة الولاية ، ومحرراً للقسم العربي من جريدة الزوراء ، وهي الجريدة الرسمية في بغداد يومئذ ثم انتخب عضوا في محكمة الاستئناف في بغداد . وفي سنة ١٨٩٦ سافر الى الآستانة فالحق بالبعثة العلمية الاصلاحية التي أرسلت الى اليمن ، وهناك القى دروسا ثمينة في تفسير القرآن الكريم . وبعد سنة عاد الى الآستانة فانعم عليه السلطان بالوسام المجيدي . ورتبة (بلاد خمس الموصلة) . ثم رجع الى بغداد . ويقول الراحل : انه نفي اليها من قبل السلطان عبد الحميد وهذا نفي غريب إذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يسمع من قبل أن الرجل ينفى من غير بلده الى بلده الا في هذه الحادثة .. وفي سنة ١٣٢٤ هـ عاد الى الآستانة وعين استاذا للفلسفة الإسلامية في المكتب الملكي ومدرساً للآداب العربية في شعبة الآداب من دار الفنون . ثم نقل الى تدريس مجلة الأحكام العدلية في مدرسة الحقوق في بغداد . ثم عزل من وظيفته هذه على أثر نشره مقالا في جريدة اللواء في مصر بحث فيه عن حقوق المرأة، وعده الجمهور في بغداد خروجا عن تعاليم الاسلام وتقاليده .

وبعد هدوء الخواطر أعيد تعيينة لتدريس المجلة في مدرسة الحقوق . ثم انتخب نائبا عن لواء المنتفق في مجلس النواب العثماني ، وبعد وصوله الآستانة بقليل انحل المجلس بسبب انهزام الاتحاديين أمام خصومهم السياسيين ، فرجع الى بغداد ، ثم بعد تغلب الاتحاديين على السلطة على أثر الحرب البلقانية انتخب نائبا عن بغداد .

وبعد احتلال العراق من قبل الانكليز عين عضوا في مجلس المعارف ، ثم رئيساً للجنة ترجمة القوانين العثمانية الى العربية . وفي تموز سنة ١٩٢٥ م عين عضوا في مجلس الاعيان العراقي وبعد أربع سنوات انفصل من العضوية بنتيجة الاقتراع الذي تم لاخراج نصف أعضاء المجلس عملا بحكم القانون الاساسي .

مؤلفاته

للاستاذ مباحث كثيرة في مواضيع شتى . كتب فيها المقالات المسهبة ونشرها في أمهات الصحف العربية في مصر والشام . والذي نشر من مؤلفاته على سبيل الانفراد :

١ — كتاب الكائنات — وهو من أوائل مؤلفاته وسمعته يقول : هذه رسالة الفتها قبل أن قتلت مباحثها علما وتمحيصاً .

٢ — الجاذبية وتعليلها — رسالة ذهب فيها مذهبا خالف فيه حكماء العصر كافة في نظرية الجذب

٣ — الدفع العام والظواهر الطبيعية والفلكية — وهي رسالة بمعنى ما سبقها وتوضيح لها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ — المجمل مما أرى — وهي رسالة أجمل فيها خاصة الرسائل السابقة . مع زبدة آرائه في أمور علمية كثيرة .

٥ — الفجر الصادق في اثبات الخوارق — وهو كتاب رد فيه على منكريي المعجزات والكرامات . ونشره في مصر سنة ١٣٢٣ في آخريات أيام السلطان عبد الحميد

دواوين شعره

١ — الكلم المنظوم — وهو أول ديوان أخرجه للناس ويتضمن شعره الى حين اعلان الدستور العثماني .

٢ — رباعيات الزهاوي — طبعت في بيروت سنة ١٩٢٤ .

٣ — ديوان الزهاوي — وقد ضمنه جميع منظومه منذ اعلان الدستور العثماني الى سنة ١٩٢٤ م وضم اليه ما يليق للضم من رباعياته وديوانه الاول (الكلم المنظوم) وبوبه تبويبا جديدا لم يسبق اليه .

٤ — اللباب — جمع فيه المختار من شعره وطبعه في بغداد سنة ١٩٢٨ م

٥ — الاوشال — ويتضمن القسم الاخير من شعره نشره سنة ١٩٣٤ م

٦ — رباعيات عمر الخيام — وتحتوي ١٣٠ رباعية من رباعيات الخيام ترجمها الفقيد الى العربية شعراً ونشرها في بغداد سنة ١٩٢٨ م

وأخبرني قبيل وفاته أن لديه مجموعا من شعره الأخير أراد نشره باسم (الثالة) .

ويزعم بعضهم أن لديه قصائد ومقطعات . تتضمن آراء تصطدم بالديانات . وتنافي مشهور الاعتقادات وأنه أسماها (نزغات الشيطان) والله أعلم بحقيقة هذا المزعم ... والذي أعرفه من خلق الزهاوي الراحل أنه لا يصبر كثيرا على كتمان ما تنتجه قريحته . وأصحابه كلهم يعرفون منه هذا الخلق . كان رحمه الله ينشد أصحابه الكثير مما يخالف معتقد الجمهور على زعم أنها من الأسرار التي لا يجوز نشرها ثم لا يلبثون أن يقرؤها منشورة في الصحف فلا يعجبون لما يعرفون من عدم تمكنه من تغطية أسراره وكتمان بنات أفكاره .. وقصيدتاه (على السراط) و (ثورة في الجحيم) أوضح برهان على صحة ما ذهبنا اليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد حاول الراحل تأليف الروايات ، فوضع رواية وجد جمهور القراء (وهو معهم) أنها لا تتناسب مع شهرته في العلم والأدب ، ولهذا لم يعد الى تجربة ثانية .

وله مجموع يشتمل على زهاء (٢٠٠٠) بيت من الشعر اختارها من دواوين الشعراء ومؤلفات الأدباء ، وقد نشر بعضها في بعض الصحف البغدادية اليومية مع تعليق على طائفة منها .

وفاته

في يوم ٢٣ شباط سنة ١٩٣٦ م رُوِّع الأدب وأنصاره والعلم وأخباره بمنعى الأستاذ الكبير ، وأنه أجاب داعي ربه على أثر مرض لم يُمهله إلا سويعات ، وهكذا انطفأت تلك الجذوة المتأججة وغاض معين تلك العواطف الفياضة والأفكار الجياشة .

وقد شُيع جثمانه الى مرقده الأخير تشييعاً مهيباً ، مشى فيه عظماء المملكة وكبراؤها ، يتقدمهم رئيس الوزراء ورجال حكومته ، ولم يعقب ولداً ، وقد شرّعت الحكومة الهاشمية قانوناً خاصاً بإعطاء زوج الراحل الراتب الذي كان يتقاضاه في حياته كاملاً ، بينما كانت القوانين المرعية في البلاد تقصرها على النصف منه فقط ؛ وهذه مأثرة للحكومة سيحفظها لها التأريخ .

طه الراوي

عضو المجمع العلمي العربي

بغداد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net